

رؤية العالم وتضخم الذات عند كتاب المنافي

Cultural patterns in the novels of Wasini Al-Araj - Biography of Al-Muntaha as an example-

بلال بلخير*

ملخص البحث:

لابد أن نتفق على حقيقة جدلية. أنه لا يوجد شخص يغادر موطنه الأم ومسقط رأسه ليعيش في بلد آخر غريبا عنه ثقافيا واجتماعيا ودينيا إلا للضرورة، سواء اتفقنا أو لم نتفق على تلك الضرورة. فالمنفي سواء كان خروجه نابع من قرار شخصي، أو مرغما بفعل ضغط السلطة السياسية الحاكمة. بمجرد خروجه من حدود مجاله الديني أو الاجتماعي أو الثقافي، الذي يمثل في مجمله هويته التي تعبر عن كينونته ورؤيته للعالم. يتولد عنده هاجس وقلق يلزم كل منفي مهما اختلفت ظروفه وأوضاعه في بلد المنفى، ألا وهو خوف إذابة تلك الهوية. وبالتالي تتولد عنده ما يسمى بميكانيزمات الدفاع التي تتسابق للتحصين والحماية من الذوبان في الثقافة المستقبلية الحاضنة له. والكتابة في هذه الحال هي أيضا شكل من أشكال الحماية والدفاع، وهو ما يعني أن الكاتب المنفي يختار اللغة للإقامة بدلا من المنفى، حيث تشكل اللغة ملاذا حميما بما تتيحه للكاتب من إعادة كتابة الماضي بوصفه بنية تفوق بنية المنفى ثقافيا وحضاريا وجماليا. وعلى الرغم من قسوة تجربة المنفى وضراوة وطأتها فإنها تضفي الكثير من الخصائص المتضافرة بين السلب والإيجاب على رؤية المنفيين للعالم، والإنسان، والأشياء. حيث يكتف المنفى من شعور المنفي بأهميته الشخصية، فتتضخم ذاته فيتحول منزل الأسرة المتواضع في ذاكرته إلى قصر منيف أو تتحول الحديقة المتواضعة على مستوى الواقع إلى ضيعة مترامية الأطراف على مستوى الذاكرة والمخيلة. وفي هذا الصدد نطرح على بساط البحث جملة من التساؤلات: ماهو أدب المنفى؟ وكيف ينظر المنفي إلى العالم بحمولته الثقافية التي يتبناها؟ وذلك من خلال دراسة تحليلية لبعض مروييات كتابنا العرب المنفيين في ظل الدراسات البينية.

الكلمات المفتاحية: السرد، الرواية، أدب المنفى، رؤية العالم، الوعي الفعلي،
الوعي الممكن.

Abstract

We must agree on a controversial fact. There is no person who leaves his motherland and birthplace to live in another country that is culturally, socially and religiously foreign to him except out of necessity, whether we agree or not on that necessity. The exile, whether his departure stems from a personal decision, or was forced by the pressure of the ruling political authority. As soon as he leaves the boundaries of his religious, social or cultural sphere, which in its entirety represents his identity that expresses his being and his vision of the world. He develops an obsession and anxiety that accompanies every exile, no matter how different his or her circumstances in the country of exile, which is the fear of dissolving that identity. Thus, what are called defense mechanisms are generated in him, which compete to fortify and protect him from assimilation into the receiving culture that embraces him. Writing in this case is also a form of protection and defense, which means that the exiled writer chooses the language for residence instead of exile, as language constitutes an intimate refuge as it allows the writer to rewrite the past as a structure that is culturally, civilizationaly, and aesthetically superior to the structure of exile. Despite the cruelty and severity of the experience of exile, it adds many combined negative and positive characteristics to the exiles' view of the world, people, and things. Exile intensifies the exile's sense of his personal importance. His self magnifies, and the modest family home in his memory turns into a magnificent palace, or the humble garden in reality turns into a sprawling estate in memory and imagination. In this regard, we raise a number of questions: What is the literature of exile? How does the exile view the world with its cultural burden? This is done through an analytical study of some of the narrations of our exiled Arab writers in light of interdisciplinary studies.

Keywords: narrative, novel, exile literature, world view, actual awareness, possible awareness.

الوطن هو التربة التي يعيش فيها الانسان، ويمد جذوره لتغوص في ثنائياها حتى تستقي الحياة. ولا يمكن للإنسان أن يقطع صلته بوطنه بمحض ارادته، فلا بد أن من غادر وطنه قد أجبرته تكاليف الحياة على ذلك، فمن العاقل الذي يهجر حزن أمه لمهيم على وجهه في هذا الكون، إلا متحرفا لأمر عظيم دعاه لذلك. سواء كان من أجل لقمة العيش، أو بحثا عن حياة كريمة وأمنة أو خوفا من الظلم والقهر والموت. فقد علمتنا الحياة أن نتوقع مانخشى ونكره ونتوق، من المصدر نفسه الذي نتوقع منه ما نحب ونرجو ونتمنى. لهذا كله يقتزن أدب المنفى دائما بفكرة العودة الى الوطن مهما طال الزمان أو قصر. فالمنفي الذي يعاني أو عانى مرارة النفي، يحمل في داخله هاجس الوطن المفقود، ويشغله الحنين إليه في وعيه الفعلي، ويسعى دائما إلى وعي يمكنه من أن يحقق فيه فكرة العودة الى فردوسه المفقود الذي خلفه غصبا. فالحنين والاشتياق يمثل اللب الحقيقي لأدب المنفى. وهذا الشوق شوق معذب وشغف عاجز عن تحقيق تلك الرغبة في العودة والإنكفاء، وهذا ما يعبر عنه مصطلح (nostalgia) الذي يعبر عن الحنين والرجوع المقترن بالشقاء، والأدب عامة والرواية خاصة بطابعها الذي يأبى أن يستقر على حال ولن يستقر. يمثل تعبيرا عن التجربة الإنسانية ببعديها الذاتي والاجتماعي. فبالتالي يسعى الكاتب المحروم من وطنه إلى صنع وطن متخيل خاصا به، يعيد صوغه على المثال القديم مثال الوطن الذي يحمله في مخيلته. الوطن البتول أو بالأحرى الوطن بالمعنى الأفلاطوني. فيتحرر من عبئه وإرثه الثقيل الأليم، ويستعير مستقبله من ماضيه، ويسترجع حاضره ممن خطفه غصبا فيتحرر من حكمه. عندها يصبح الحاضر الذي يريد حاضرا على الحقيقة وإن كانت متخيلة ثابتا لا يتغير. فليس الحاضر إلا حدا متوهما لماضي يسعى من خلال استحضاره استحضار الفردوس المفقود. وهذا المطمح لا يتحقق إلا بواسطة اللغة، حيث تشكل اللغة ملاذا حميما بما تتيحه للكاتب من إعادة كتابة الماضي بوصفه بنية تفوق بنية المنفى ثقافيا وحضاريا وجماليًا*. لكن هذا الأمر لا ينجح إلا في الأعمال المتميزة. فاللغة تحجب فمن يستطيع أن يجمع البحر في دواة، والأرض في ورقة، والجبل في همزة. وهذا يتشكل من

خلال تكوين رؤية مزدوجة يرى من خلالها العالم، والإنسان، والأشياء. دون معزل عن بعضها فكل مشهد أو موضع في الموطن الجديد، يستحضره بالضرورة نظيره في الموطن القديم. وبذلك يكون فعل الكتابة بديلا عن وطن غائب وتشكيلا في الوقت ذاته لوطن متخيل، حينها تصبح الكتابة وطنا لمن لم يعد له وطن. فكتابة المنفى كتابة تصل المكان بالهوية، والأرض بالثقافة والتاريخ، واللغة بالوجود. أو لنقل خيال المنفى كما يسميها هومي بابا. ولفهم هذه العملية المعقدة يصبح للظاهرة الأدبية الحق في دق أبواب مختلف التخصصات والعلوم الإنسانية باعتبارها مسالك تأويلية توائم كل تلك الحقول المعرفية، ويصبح بعضها يخدم بعضها كوسائل وإجراءات وآليات اشتغال تعمل على تأويل النص بمختلف مرجعياته، في ظل تواشج العلوم والنقد الأدبي. وهذا ماتعمل عليه الدراسات البينية والنقد الثقافي لتوضح لنا سيكولوجية تفكير كاتب المنفى والميكانيزمات الدفاعية التي يستخدمها في أدبه من أجل المحافظة على هويته من الذوبان في الثقافة المستقبلية، كتضخيم الذات التي تعافر في عالم يرزح تحت وطأة مختلف القوى الإمبريالية. فسرمد المنفى ما هو إلا سرد أمة يحدق بها خطر الذوبان والانقراض من كل جانب إن لم تقاوم. وهنا يحق لنا التساؤل، كيف يرى أديب المنفى العالم من منظوره الذي يحمل خلفياته الثقافية التي تصنع ذاته وهويته؟ وللإجابة عن ذلك لا بد أن نفهم أولا ما هي رؤية العالم وماهي خصائص أدب المنفى أو الإغتراب وذلك بالاعتماد على المنهج البنوي التكويني، الذي يدلنا على سلوكات الإنسان التي تحكمها عوائده طقوسا، وتصيغ ردود أفعاله اللاواعية. فتسكن ذاكرته ولا وعيه الذي يتمثلها في أحلام نومه ويقضته.

إن الحديث عن سرد المنفى وصناعة الأوطان المتخيلة يحيلنا بالضرورة إلى تجربة حقيقية في صناعة منفى متخيل على أرض الواقع ولعلها الأولى والوحيدة في تاريخنا العربي قصة الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل عندما سقطت دولة بني أمية في المشرق على يد بني العباس رحل عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس فدخلها طريدا شريدا هائما على وجهه منفيا من بلده لا يستطيع العودة إليه وعندما ملك وجلس على سدة الحكم حن إلى موطنه الأم الشام مهد أجداده بني

أمية فبعث من يذهب إليها ويأتيه بفسائل من نخيلها وأشجار النارج والزيتون والليمون وبني بها قصر الرصافة الذي كان صورة عن قصر الرصافة في الشام وكان كلما يحن إلى وطنه يخاطب الشجر والبناء فيستعيد من خلالها أيام صباه وشبابه في رياض دمشق وأرباضها وهذا يخبرنا أن المنفي يحمل في داخله حنيناً إلى وطنه الأم مهما كان ما عاناه فيه من ألم وعذاب وتشرد ولا يمكنه أن يستقر بأرض الغربة ولو كان ملكاً فيها فكل إنسان مرتبط بمسقط رأسه وهذا ما يعبر عنه سرد المنفى ويمثل لبه وحقيقته ويصنع في غربته وطناً متخيلاً محاكياً لوطنه

رؤية العالم بحث عن الذات:

قبل أن ننطلق في فهم رؤية المنفي، وأديب المنفى للعالم على وجه الخصوص. لابد أن نوضح الفكرة الأساسية التي يحوم حولها المصطلح، وتتولد منها الإجراءات التي تحاول تأويل النص والوصول إلى لبه وهضمه. فمنذ أن ظهر على الساحة الأدبية والنقدية منهج البنيوية التكوينية ذي المرجعية الاجتماعية، المستندة على الفلسفة الماركسية. والذي أسسه الناقد الفرنسي -لوسيان غولدمان Lucien Goldmann- أحدث ثورة نقدية في عالم الأدب. فبعيد ظهور المنهج البنيوي الذي يهتم بالنص فقط بمعزل عن مؤلفه، ويقطع الصلة مع السياق الخارجي للبيئة التي أنتجت النص، والاكتفاء فقط بالبنية النسقية للغة المكونة له. حاول غولدمان أن يجمع بين المنهج البنيوي والمنهج الاجتماعي في منهج واحد هو المنهج البنيوي التكويني (التوليدي)، الذي يقوم على فكرة أن كل بنية لغوية موجودة في النص، هي متولدة ومحاكية لبنية اجتماعية أثرت في تكوينها. وذلك عبر التمثلات الثقافية والتاريخية للمجتمع الذي أنتج الكاتب، وبالتالي كان من نتائج عمله الأدبي الذي يعبر عن رؤية ومنظور تلك الجماعة للعالم، والتي نخلص في تحليلها إلى فهم رؤية الكاتب للعالم من منظوره الاجتماعي، والثقافي، والتاريخي. الذي صنع فهمه لمحيطه من خلال مرجعياته المشكلة لهويته الخاصة. إذاً إن ما تريد رؤية العالم قوله في مختلف تجلياتها كمقولة أساسية هو أنه لا يمكن بحال من الأحوال الاعتقاد بأن النص ظاهرة معزولة عن البنية الاجتماعية التي نشأت فيها، إذ لا يمكن الاقتصار على العالم الداخلي للنص فقط،

كون هذا الأخير يقيم علاقات من نوع آخر مع عالمه الخارجي الرحب من مجتمع وتاريخ وعالم ثقافي وإيديولوجي وأفراد، ولغة وكلام، ولطالما كانت اللغة مخزون الذاكرة التاريخية¹ وبالتالي يتوجب علينا أن نكتشف آلية الحركة بين عناصر النص لنكتشف الرؤية التي تحكمها، وربما تمكن الباحث في مجموعة نصوص أن يكشف قوانين مشتركة بينها.²

نفهم من ذلك أن رؤية العالم تتناول البحث عن التوجه الذي يحرك العملية الأدبية ويتحكم في منظومتها التي تسير عليها، من خلال مرجعية اجتماعية تكونت عبر حقبة التاريخ وتجلت في لغة القوم، وطريقة تعبيرهم عن دواخلهم الذاتية. بطريقة تتوافق آلياً مع المجتمع الذي نشأ فيه الكاتب، وتؤثر على طريقة رصفه للعبارات، واختيار الألفاظ، والأسلوب الذي يسير في نسقه النص. لذلك فالمعضلة الرئيسية التي جاءت لتعالجها، رؤية العالم هي نفسها التي عكف أسلاف غولدمان من قبل على معالجتها، وهي ربط النص بعالمه الخارجي بواسطة علاقات نصية تجد بذورها وجذورها في البنية الداخلية للنص وهي ببساطة علاقة النص كإبداع بواقعه الذي نشأ فيه. وهي علاقة ذات طبيعة جدلية تهدم في حركتها هذه كل تصور لانعكاس آلي محتمل، بل إنها رؤية تنشأ من صلب الصراع القائم بين تلك العلاقات غير الاتفاقية وغير المباشرة بين العالمين، والتي لا سبيل إلى إدراك غايتها أو انتظار نتائج ملموسة من دراستها دون فهم ذلك الجدل الذي يفسر في حركيته الدائمة بين العالمين الواقعي والفني رؤية العالم التي تهدف إليها الدراسة البنيوية التكوينية³ ولعل النظرية الماركسية تستطيع أن تطلعنا على ميكانيزمات العلاقة الجدلية بين الأدب والمجتمع، من خلال دراسة التأثير والتأثر المتبادلين بين البنية التحتية والبنية الفوقية. وكيف أن البنية التحتية وماتمثله من وسائل الإنتاج والعجلة الإقتصادية، تؤثر في البنية الفوقية التي تمثل الثقافة والفنون والأدب. ومن ثم تصبح البنية الفوقية تؤثر في العملية الاقتصادية، من خلال عملية العرض والطلب. فالأعمال الفنية والأدبية الناجحة تدر أموالاً تدخل في عجلة الاقتصاد، والأديب بوصفه جزءاً من مجتمع يعيش بين رحي البنيتين، ويحمل في داخله ذاتيته المبدعة للفن والأدب،

وكذلك هو جزء من الجماعة يعيش بينها ويحمل همها ويعبر عن طموحاتها وظروفها ومشاكلها. وكل ذلك يؤثر في رؤيته للعالم التي تتجلى بصور مباشرة في عمله الأدبي، وبالتالي فالجدلية البارزة التي تقوم عليها رؤية العالم هي تلك القائمة بين الفردية في بناء العمل الإبداعي والجماعية في تأليفه، فإذا كان العمل لا يفهم إلا على أنه محاولة يقوم بها فرد معين لإيجاد حلول لمشاكله الوجودية والكونية فإنه يتعذر علينا استكمال هذا الفهم دون ربطه بمحيطه العام الذي نشأ فيه، ذلك أنه مهما أغرق هذا العمل في الفردية والانعزال فلا مفر من توجهه بشكل من الأشكال إلى الخارج وإلا بما نفسر عمليات طباعته والسهرة على إذاعته وترويجه بين القراء بل إلى كل العالم لو أمكن. فإذا كان البعد الفردي للعمل يبرره تفرد الفنان بخصوصية شخصيته الفنية وأسلوبه ونوعية رؤيته وكيفية معالجته وفهمه للعالم، فإن بعده الاجتماعي يستجمع مصوغاته من المحيط الذي يتعامل معه هذا الفن ويستقي منه مادته الخام⁴. ولا يوجد شكل في اعتقادنا يمكن تطبيق منهج البنيوية التكوينية عليه لفهم منظوره للعالم أكثر وأوضح من أديب المنفى، فهو صورة مصغرة عن مجتمعه يحاول دائما إبراز تقاليده وعاداته وطريقة تعبيره التي تربطه مباشرة مع المجتمع الذي نشأ فيه. ولعله يحاول من كل ذلك أن يبرهن على انتماءه لذلك المجتمع، وأنه جزء منه بكل الوسائل والطرق الممكنة. لأنه يعيش في منفاه حالة من الاغتراب العاطفي والاجتماعي، ولا يقبل أن يذوب في مجتمع غريب عنه، فيحاول التمسك بمجتمعه الغائب عنه من خلال اللغة والكتابة. فأديب المنفى مزاج بين مجتمعه وثقافته الأم والبلد الذي يقيم فيه. ولقد يقاس البعيد على القريب والغائب على الحاضر. يرق بالأولى رقة العاشق المحروم، ويشد بالثانية شدة الثائر المجروح. ويهديه في هذا وذاك. ابتداء وطن يجمع فيه حبه لوطنه الأم، والأمان الذي يجده في منفاه. فكيف يبني المنفى وطنًا من الكلمات برؤية تستند على مرجعيات ثقافية اجتماعية، وتطلعات مستقبلية تنظم الأشياء والإنسان والعالم بأكمله في بوتقة واحدة خاصة به، ولا تعبر إلا عنه أو عن الجماعة التي ينتهي إليها؟.

أدب المنفى وصناعة الوطن:

أدب المنفى هو كل أدب يكتبه من عانى النفي أو مازال منفيا عن وطنه، وتتميز بنيته السردية بتييمات فريدة تنبع في جلها من فكرة الحنين للوطن المفقود وهاجس العودة إليه. وهذا يمثل قلقا وجوديا عند كاتب المنفى الذي تشبه حالته حالة أهل الأعراف، لا هو في جنة ولا هو في نار يعيش في صراع دائم بين جسده وروحه. جسده جثة جامدة في بلد وروحه تحوم هائمة في بلد آخر تبحث عن الراحة والطمأنينة، ولهذا كان من أسماء أدب المنفى أدب التخوم. ويعرّف المنفى بأنه الإنسان المنشطرين حال من الحنين الهوسي إلى المكان الأول، وعدم القدرة على اتخاذ القرار بالعودة إليه. وينتج هذا الوضع إحساسا مفرطا بالشقاء لا يدركه إلا المنفيون الذين فارقوا أوطانهم ومكثوا طويلا مبعدين عنها فاقتلعوا من جذورهم الأصلية وأخفقوا في مد جذورهم في الأمكنة البديلة، فخيم عليهم وجوم الاغتراب، والشعور المريع بالحس التراجيدي لمصائرهم الشخصية⁵ فالمنفى لا يشعر أبدا بالانسجام في بلد النفي. فهو يعيش اللا أمان شعور قاتل بالغرابة، وعدم الإلتواء لأنه مرتبط دائما بفكرة العودة. وأن المكان الذي يعيش فيه هو مكان طارئ مؤقت، حتى في بيته يأبى أن يدق مسمارا في الحائط ليعلق عليه ثيابه. بل يرميها فوق الكرسي لأنه يؤمن بأنه سيعود قريبا لوطنه، وهذا تفسره سيكولوجية الإنسان المعلق بين السماء والأرض. فما المكان الذي يعيشه إلا منطقة عبور لا يلبث أن يغادره عائدا للوطن، وهذا يمكن أن نعبر عنه بالوطن الترانزيت. فالمنفى ليس مكانا غريبا فحسب إنما هو مكان طارئ ومخرب ومفتقر إلى العمق الحميم، ويضمزقة طاردة في العلاقات القائمة فيه بالنسبة إلى المنفى ويخيم عليه برودة الأسى وضحالة المشاركة. ولطالما وقع تعارض بل انقسام بين المنفى والمكان الذي رحل إليه ونذر أن تكللت محاولات المنفيين بالبنجاح في إعادة تشكيل ذواتهم حسب مقتضيات المنفى وشروطه⁶ وهذا ما يجعله يصنع لنفسه وطنا هجينا متخيلا يعيش فيه من خلال فعل الكتابة، يحقق فيه ذاته ويرسم معالم هويته في شوارعه ومدنه وتلاله وشواطئه. وطنا لا شر ولا ظلم فيه، صورة مثالية محاكية لوطنه الأم كما يريد أن يكون، فيتخيله كأنه عدن الأولى. خبز الطابون

فيه أشهى وألذ من خبز الباغيت الفرنسي، وكوخ الطين أفخم من قصر باكنغهام، والبستان الصغير أوسع من حدائق فيرساي. حيث تشكل قضية تخيل الأوطان والأمكنة الأولى ومنها المدن وما يتصل بذلك من حنين وشقاء البؤرة المركزية لأدب المنفى فثمة تزاخم بين الأوطان والمنافي في التخيلات السردية التي يكتبها المنفيون خاصة بأوضاعهم الثقافية أو السياسية. لا يستطيع المنفى الانخراط الكامل في المجتمع الجديد، ولا يتمكن من قطع الصلة بالمجتمع القديم الذي ولد فيه، فيتوهم صلة مضطربة وانتماء مهجنا، ويخلق بلادا لاحقته أطياها في المنفى، فما أن يرتحل المرء أو يُرحل عن مكانه الأول حتى تتساقط كثافة الحياة اليومية وتنحسرو وتتلاشى وتحل محلها ذكريات شفافة تدفع به إلى نسيان الوقائع المبررة، وبمضي السنوات يبدأ المنفى في تخيل بلاد على سبيل الاستعادة والتعويض، وهي أمكنة تتخلق في ذاكرته كتجربة شفافة وأثيرية، يغذيها شوق إلى أماكن حقيقية تلاشت إلا كومضات بعيدة في عتمة حالكة. ذلك هو الحنين بدلالته الفكرية والعاطفية.7

إذا المنفى لا يصنع وطنه إلا بقدر ما يصنع نفسه، يجعل منه بؤرة مركزية لذاته يعود إليها كلما ضاقت به الحياة بهومها ومتاعبها. يحقق فيه أحلامه وطموحاته التي لم يستطع تحقيقها في وطنه الحقيقي، يعبر فيه عن رأيه بكل حرية وشموخ، ينزع فيه الأقفال التي وضعت في فمه ليلفظ منه النار والدم، والأمل والسلام والحب والغضب، يستعيد مكانا على سبيل الافتراض ليجعل منه مركزا لذاته، ومحورا لوجوده، فيلوذ بالوهم بحثا عن توازن مفقود، هو يُحكم سيطرته على المكان المفقود عبر سيل من الذكريات المتدافعة في سعي إلى العثور على معنى لحياته، فيغيب المنفى مكانا يعيش فيه الآن، ويحضر الوطن زمانا كان فيه من قبل8، حتى صارت كتابات المنفيين أقوى سلاح في وجه قوى الإستعمار، والإستبداد الظالمة. فكمن كاتب وجد مقتولا في منفاه بسبب كتاباته.

رؤية العالم عند كتاب المنافي (تظخم الذات للتصدي لدوبان الهوية):

كل إنسان في هذا العالم له الحق في أن يشعر بأنه ينتمي إلى وطن يحتضنه ويجد فيه الأمن والاستقرار والحياة الكريمة التي تحفظ كرامته، وتصورها بقدر المسؤولية التي يحملها اتجاه هذا الوطن في الدفاع عنه. ضد كل من يريد اغتصابه، وسلب حقوق أهله سواء كان هذا المغتصب مستعمر أجنبي، أو حاكم متسلط، أو نظام دكتاتوري يُعرض هذا الحق إلى الضياع والتبدد. وهذا الواجب يلزم كل حر أن يتبناه، كل بطريقته الثائر بسلحه، والأديب بقلمه وفكره. ولطالما تعرض الأخير بسبب رأيه للنفي والإبعاد والنأي إلى بلد آخر غريبا عنه كعقاب له. وهنا تطرح قضية الهوية بثقلها على أديب المنفى، وتصبح شغله الشاغل. فهو يأبى الاندماج في المجتمع الجديد لأنه بالمقابل سيفقد هويته التي تذوب بفعل طغيان الثقافة الجديدة في بلد النفي. فلا يجد بدا إلا التمسك بهويته بكل ما أوتي من قوة، ولطالما أثارت قضية الانتماء ومشكلة الهوية وتخيل الأوطان قريحة أدباء المنفى، وسعوا بكل ما أمكنهم أن يتمسكوا بها إلى آخر رمق فيهم، إما بانتهاء النفي أو بالموت. إذ تعتبر الهوية مسألة لا تقبل المساومة، فهي أمور جلية بالنسبة إلى المهجرين والنازحين، والمترحلين، وكل الذين غادروا بلادهم قسراً أو اختياراً، جماعات كانوا أم أفراداً، أو أبعدوا عنها بسبب التجربة الاستعمارية، أو الاستبداد السياسي أو الديني، أو بسبب ظروف تأسيس الدول في العصر الحديث، أو بسط الأيديولوجيات المتشددة التي وضعت تمايزا بين الجماعات على أسس عرقية، أو دينية، أو مذهبية، أو قبلية، أو أي تمييز آخر قائم على أساس المعتقد، أو اللون، أو العرق، فأدى إلى النزوح عن المكان الأول، والانتقال إلى مكان غريب لم تعهده الجماعة أو يعرفه الفرد، وما يترتب على ذلك من صعاب الاندماج في الحال الجديدة التي أصبحوا عليها، لأنهم لم ينسوا أعراف الجماعة القديمة التي تحدثوا منها، ولم يهضموا تقاليد الجماعة الجديدة التي رحلوا إليها. ويُدرج بين هؤلاء المنفيون الأسباب خاصة بأوضاعهم الثقافية أو السياسية.9

والأديب يسعى لمواجهة ذلك بالتصدي له بكل وسيلة. ومن أهم تلك الوسائل مسألة تضخم الذات المنفية، فكثيرا ما نجد كتاب سرد المنفى يبالغون في وصف أنفسهم وأوطانهم والمجتمعات التي خرجوا منها. فيعطونها هالة من التقديس والتبجيل، حتى تصبح بعيدة عن النقد أو المساءلة. وما هذه الا عقد نفسية تصيب الأديب باعتباره إنسانا يتأثر بكل ما يتأثر به الإنسان حين تجرح مشاعره، وتشوه دواخله إذ يعلمنا علم النفس الحديث. أن سبب تضخم الذات عند الإنسان عامة والأديب على وجه الخصوص. باعتباره فردا له خصائص مشتركة مع بني البشر بل وأكثر حساسية من الفرد العادي يعود إلى ثلاثة عقد رئيسية. هي: عقدة النقص، وعقدة الدونية، وعقدة العار. فالأديب المنفي يشعر وهو في أرض المنفى بصغر حجمه، وأنه يتلاشى في زحمة الحياة والمدينة الغريبة عنه. ثقافيا، وحضاريا. مما يولد عنده مشكلة نفسية تتسبب له في خلق ذات موازية، متعارضة مع ذاته المشوهة. تسعى إلى الدفاع عن هويته وحمايتها من التلاشي والذوبان وبالتالي. تتمثل عقدة النقص في أن الطبيعة النفسية للإنسان سواء كان متسلطا أو مقهورا تسعى دائما وراء إيجاد وسيلة لحماية ذاتها من واقع المفاجآت يختل فيه التوازن بين السيد والمقهور، الأول يغلب عليه الطابع التملكي لا يعترف بعلاقة أنا أنت التي تتضمن- المساواة والاعتراف المتبادل بإنسانية الآخر وحقه في الوجود- خوفا على مكانته من التنافس أو الزوال أما الثاني فتتلاشى إنسانيته كليا ليصبح الإنسان الذي لا حق له، لا مكانة ولا قيمة إلا ما شاء الطرف المتسلط أن يتفضل عليه، علاقة تحمل في طياتها عدوانية خفية، خداعا وتضليلا، وعودا كاذبة فتتحول إلى لعبة يلعبها كل طرف كما تسمح له إمكانياته بعيدا عن الغايات النبيلة¹⁰. وبالتالي، فالمنفي يسعى دائما إلى فرض مكانته وهويته بكل السبل. لأنه يشعر في داخله بالنقص والضعف، فيواجهه بتصنع القوة التي يستخدمها في كتاباته، فيضفي على نفسه قدسية لا يسمح أبدا بالنقص منها.

ثانيا: عقدة الدونية إذ إن الإنسان المقهور يعيش حالة عجز إذ يجد نفسه في وضعية المغلوب على أمره في معظم الأحيان، يشعر بفقدان الثقة وأنه على غرار

الآخرين لا يستطيع شيئا إزاء قوى التسلط، سرعان ما يتخلى عن التصدي منسحبا، يائسا من إمكانية التغيير الفعال فيسقط في فخ التوقع والانتظار الذي يبقيه دائم الخوف عديم الثقة بقدراته على الفعل والتأثير وأن ليس له إلا القبول بواقع لا يقهر¹¹. وهذا مالا يرغب أديب المنفى في إثباته على نفسه، فيلجأ إلى عكس الصورة من الاستسلام، إلى فعل المقاومة العكسية. على الرغم من أنه يحمل بين ثناياه عقدة أشد خطرا وفتكا بصحته النفسية وهي عقدة العار إذ عمدت ثنائية التخلف سيد-مقهور منذ الأزل إلى زرع عقدة العار تهديدا دائما بفقدان توازن هذا الأخير الذي يخجل من ذاته، يخشى أن ينكشف، أن يفتضح عجزه وبؤسه الداخلي. إنها لعبة نفسية محبوكة تجعل هم الإنسان المتخلف نظرة الآخرين، تعليقاتهم التي تسلب منه حريته وتجعله مقيدا بتضخم آلام الماضي، تأزم معاناة الحاضر وانسداد آفاق المستقبل¹².

وكل هذه العقد التي تسبب في تضخم ذات الأديب. نجدها متجسدة في كتاباته وخاصة الأعمال السردية، وفي مقدمتها الرواية. فالأديب يختلف عن الإنسان العادي الذي حتى وإن تعرض للنفي لا يمتلك القدرة على تطويع عقده، في خلق معاملا موضوعيا لها. بواسطة الكتابة التي تفتح له آفاقا يرى من خلالها العالم بمنظور خاص به، بما يمتلكه من خيال واسع يتميز به عن غيره من الناس العاديين فهذا هو الفرق بين من لا يستطيع أن يرى من الدنيا غير يومه الذي يعيشه ويحياه، فيصنع مستقبله على قدر ما رأى. وبين من يرى حال يومه ظرفا طارئا لا يدوم وسرعان ما سينتهي، فيرى ما يريد من مستقبله بعين ماضيه الذي خلفه وراءه. فعلى الرغم من قسوة تجربة النفي، وضراوة وطأتها، فإنها تضيف الكثير من الخصائص المتضافرة، ما بين السلب والإيجاب، على رؤية المنفيين للعالم والإنسان والأشياء، فالمنفي ينظر إلى العالم أجمع باعتباره أرضاً غريبة، ويكتف المنفى من شعور المنفي بأهميته الشخصية فتتضخم ذاته، ويتحول منزل الأسرة المتواضع في ذاكرته إلى قصر منيف، أو تتحول الحديقة المتواضعة على مستوى الواقع إلى ضيعة مترامية الأطراف على مستويي الذاكرة والمخيلة؛ فالمنفى يعمق من رومانسية الشخص

المنفى، كما أن العناد والمغالاة، والمبالغة في الكلام (الاسترسال)، والإصرار الذي لا يلين، والعداء الجارف للغرباء، كلها. إلى جوار ملامح أخرى من أساليب الحياة في المنفى¹³. وهذه هيا حيلة المنفى لتجاوز واقعه المير. بخلق واقع أجمل منه يصنعه بواسطة اللغة، يعيش فيه ويصوغه على الشكل الذي يراه مثاليا، ويصبح فيه هو السيد لا العبد. فالكثير من الكتاب المنفيين يُضَفُّون كرامة على شرط شرع له أن يُنكر الكرامة، وأن ينكر هوية الشعب. ومن الواضح من خلال أمثال هؤلاء أنك كيما تركز على المنفى بوصفه ضَرَبًا من العقاب السياسي المعاصر لا بد أن ترسم خرائط لنطاقات من التجربة تتعدى تلك التي رسمها أدب المنفى ذاته. فمن الواضح ويكاد أن يكون من المتعمد أن ليس ثمة سبيل إلى إصلاحها أو معالجتها¹⁴.

وبالتالي يسعى أدب المنفى من خلال الرواية بوصفها الجنس الأدبي الأكثر مرونة للتعبير عن التجارب الإنسانية المختلفة، واستيعابها إلى ترسيخ الهوية والقومية التي ينتهي إليها الكاتب السارد. من أجل تحقيق ذاته المشتتة والمتشظية بين الماضي المجيد الجميل، والحاضر الأليم وإذ نأتي إلى القومية و اقترانها الصممي بالمنفى. فالقومية هي تأكيد على الانتماء إلى مكان، وشعب، وتراث. وهي تؤكد على الوطن الذي خلقتة جماعة تتقاسم اللغة والثقافة، والعادات وهي، بفعلها هذا إنما تدرأ النفي وتقاتل للحيلولة دون ما يجره من خراب. والحق أنّ التفاعل بين القومية والمنفى هو أشبه بديالكتيك العبد والسيد عند هيغل، حيث يعمل كل من هذين الضدين على إملاء الآخر وتشكيله. فكل القوميات في مراحلها الأولى تتطوّر انطلاقاً من حالة الغربة والكفاحات التي خيضت من أجل نيل أميركا استقلالها ومن أجل توحيد ألمانيا أو إيطاليا، ومن أجل تحرير الجزائر هي كفاحات تلك الجماعات القومية التي أبعدت أو نفيت¹⁵.

فالقومية التي يفتقدها المنفيون في غربتهم. يسعون إلى صناعتها في أعمالهم بطريقة فجّة ومتفاخرة، لأنها قومية لا تتأسس على مبدأ الجماعة التي تغذيها وتحمي أسسها وركائزها المتينة. فالقوميات أمر يتعلق بالجماعات، أما المنفى فهو عزلة

تعاش خارج الجماعة بإحساس بالغ الحدة حيث يُشعر بضروب الحرمان لعدم وجود المرء مع الآخرين في الموطن المشترك. فكيف للمرء إذا أن يتجاوز عزلة المنفى دون أن ينزلق إلى لغة التفاهة القومي، والعواطف الجمعية، وأهواء الجماعة، تلك اللغة الجامعة والراعدة؟ وما الجدير بإنقاذه والتمسك به بين إفراطات المنفى من جهة أولى، والتأكيدات الشرسة التي تطلقها القومية من جهة أخرى؟ 16

ونخلص من هذا وذاك أن تضخم الذات هي معادل موضوعي يصنعه كاتب المنفى ليعوض به النقص الذي يشعر به في منفاه، وتعويضاً عما يفقده من حنان الوطن. ودائماً ما تكون رؤيته للعالم نابعة من رؤية مجتمعه الذي عاش فيه، والتي ترى الآخر بمنظور الغريب الذي يريد ابتلاع الأرض وطمس الهوية، وإذابتها حتى يقضي على المقاومة ويوثدها في مهدها.

وأخيراً يعد بحث النوع الأدبي في روايات المنفى العربية أحد أوجه بحث الهوية كما تتمثلها مرويات المنفى العربي. ولأن سؤال النوع الأدبي يتصل بمفهوم الشكل غالباً، فإنه يطرح من زوايه مغايرة تماماً. أسباب اختيار كتاب المنفى أو كتاباته شكلاً سردياً ما دون شكل أو نوعاً دون نوع آخر. فالشكل اختيار، والاختيار أيديولوجيا وموقف من العالم موقف ثقافي قبل أن يكون موقفاً جمالياً أو فنياً فحسب، ولا انفصال في جوهر الأمر بالنسبة إلى كتاب المنفى، بين الشكل والمضمون، أو بين النوع والهوية ورؤية العالم من منظور ثقافي عريض. ولأن الرواية من جهة أخرى، نوع أدبي متمرد بطبيعته، حتى داخل حدود الشكل الروائي ذاته، فإنها قد غدت أكثر الأشكال أو الأجناس الأدبية جذباً بالنسبة إلى مبدعي المنافي العربية وغير العربية على السواء. 17

ومن هنا كان ارتبطت الشكل الأدبي واللغوي للنص بالمضمون والأيديولوجيا التي أنتجته لزاماً وواجباً حتى نستطيع الوصول إلى فهم رؤية المنفيين للعالم حولهم، عالمهم المفقود، وعالمهم المحسوس، وعالمهم المصنوع المتخيل في مروياتهم. وهذه الرؤية تشترك فيها كل سرديات أدب المنفى العربية دون استثناء: من كتابات غسان كنفاني

عن مدينة رام الله، إلى إبداعات واسيني الأعرج وتمثيله لمدينة بونة أو عنابة في أعماله الروائية، وغيرهم من الكتاب العرب.

ورغم ذلك يضيف كتاب المنفى العرب إلى تمرد الجنس الروائي ذاته تمردهم الخاص بوصفهم مجموعة من المنفيين والمهمشين (أو المقموعين) الذين أضفوا على الرواية العربية صفة، أو قيمة «التعدي النوعي» الذي لم يقنع بجماليات (أو بلاغة) شبه مستقرة للشكل الروائي وراح كل منهم يعبث بما رسخ في الوعي الجمعي للمؤلفين عنها، ليصوغ مرويته أو سرديته الخاصة، التي وإن اندرجت تحت مسمى نوعي هو الرواية إلا أنها في الوقت ذاته لا تفتأ تزاوّل نموّها الذاتي الحرّ الذي يرسّخ في هدوء وتؤدّد لجدل هذا الثالوث الذي راهنت عليه سرديات المنفى منذ البداية (التيمة / النوع / الهوية)

خاتمة:

يعد سرد المنفى من الأنماط الكتابية المتميزة جدا في الأدب العربي. إذ يختص بصفة فريدة وقيمات متميزة في أسلوب الكتابة، وطريقة التعبير وتظمين الأفكار المراد إيصالها للقارئ، حيث يسعى الكاتب فيه إلى تقديم رؤية للعالم الذي فقده ويحن إليه، ولعالمه الذي يعيشه في واقعه والعالم الذي يرمي إلى العيش فيه فيصنعه بخياله بواسطة فعل الكتابة. وبين هذا وذاك ينتقل بنا أديب المنفى بين زمن الماضي، والحاضر، لينقلنا إلى المستقبل الذي يريد أن يعيشه. فيستحضره لنا في ثنايا عمله الأدبي. فيصنع من الحبر والورق والحروف عالما جميلا وفردوسا مفقودا. يصوغه في خياله أولا ثم يحبّره على رقعة الكتابة. فبحر وطنه وأنهاره حبر، وأرضه ورق، وجباله وتلاله حروف، ورياحه وأمطاره أصوات شخصياته. ولا ينسى في كل فرصة تتاح له وهو يصنع هذا الوطن المتخيل أن يمجّد ماضيه بتمجيد ذاته وتضخيمها. وذلك حتى ينجو من ذوبان هويته التي يحمل همها ليل نهار، خوفا عليها من الغرق في ثقافة الآخر. فلا نمط أدبي يوازي أدب المنفى في التمسك بالهوية والعض عليها بالنواجز.

هوامش البحث:

- * يوسف ضمرة، المنفى أو قناع الرواية الأردنية، aljazeera.net، نشر في: 2012/04/12، أطلع عليه في: 2023/11/19.
1. محمد الأمين بحري، البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 2015، ص 94.
 2. جمال شحيد، في البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان غولدمان، دار ابن رشد للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1982 ص 38.
 3. محمد الأمين بحري، البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، ص 94.
 4. المرجع نفسه، ص 95.
 5. عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، قنديل للطباعة والنشر، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2016، ج7، ص 15.
 6. المرجع نفسه، ص 15.
 7. المرجع نفسه، ص 14/13.
 8. المرجع نفسه، ص 15.
 9. المرجع نفسه، ص 13.
 10. أمة الرحمن الأزمي، سيكولوجية التخلف الاجتماعي، aljazeera.net نشر في: 2017/05/09 أطلع عليه في: 2023/11/22.
 11. المرجع نفسه.
 12. المرجع نفسه.
 13. محمد الشحات، سرديات المنفى الرواية العربية بعد عام 1967، دار أزمدة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006، ص 22.
 14. إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى 1، ترجمة: نائير ديب، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 120.
 15. المرجع نفسه، ص 121.
 16. المرجع نفسه، ص 122.
 17. محمد الشحات، سرديات المنفى الرواية العربية بعد عام 1967، ص 186.
 18. المرجع نفسه، ص 186.